مِ شَّطف شكىئلآهك لـم نهيٍ ب ىئأز قئغى ئآخصدذ (غئمتئي ئك ه لـ ز هكقئ ذ ا).

طك شئخب ع م خئ ذ لتئمبكمسدذ هكتهيظ 2017.

طكقك اكجخ هكدىي ة خ ش شئمَ ذ ني ذ لـم ض هبكخئ بً نيذز لـنض هيئ منف شئيً لتكلئ نزلكذ ا لغئ تكقه م لي صئهي يً غتطك خهلئ منق تغب
لككهنه ا ً ؤ لئ لكهلإتي آه لك له ة!

القَطعُ الناقص

لا شيء يجعل الشمس تأتي سريعاً سوى الليل المفعم بالحكايات، أعرف أنكن مثلنا تنتظِرْنَها..فلربما حان الوقت أخيراً لكي نروي حكايتنا كما نشاء، وكما عشناها معًا من قبل، وليس كما يحكونها هم، الآن فقط بعدما رحل الجميع وتركونا هنا بصحبتكن بوسعنا أن نقصها.. وددتُ لو أني ادّخرتُ حكاياتي الحزينة لأيام الرخاء، عندما تمتلك كل امرأة في التل نافذة تحرسها الرياحين والنعناع فيُصرِفان الملل والكآبة والذباب عن النساء المتخمات بروائح الشي والقلي في المطابخ الكبيرة، أو عندما يتعاطى الرجالُ الجمال (مُكَبْسَلاً) عوضاً عن سجائر الحشيش، يدخنون اللذة بدلاً من الموت، حاولتُ الاحتفاظ بحكاياتي المؤلمة لكائنات لم يتألموا قط ولم يتذوقوا الفقد، أردتُ أن أكون بالونة هيليوم ملوّنة تُطلَق وتحلّق على مهلٍ، صَدَفة محار تتنفس في آذانهم الصغيرة، أو فقاعة صابون كبيرة تبقى لمدة دقيقة واحدة لا أكثر تقتنص الدهشة من عيونهم، وجدتُني إسكافي أحذية وحكايات على السواء، يتضرع كل ليلة لكي يظل قادراً على صنع قوالب جديدة يرتديها الأطفال في العيد ويحكي عنها الأجداد في أزمنةٍ أخرى..

غير أن قصتي لم تبدأ عندما وُلدتُ من رحم أمي، لقد كان هذا حدثاً شائعاً ومتكرراً : أن يولد أحدهم، ولكن ما حدث بعد ذلك بعدة أسابيع هو ما كان فريداً من نوعه، ربما الوحيد! لا أدري..

باتت أمي تخبرني كم كنتُ طفلاً وديعاً وهادئاً، '' كنت نِسْمة'' على حد قولها، أظن أن هكذا يكون أطفال الفقراء، تدرّبهم على الإحتياج يكون مبكراً جداً، أو لعله الاستغناء! ولكن منذ تلك الحادثة وأنا لم أكف عن الصياح والبكاء، بتُّ أشكو من دون كلمات، ولا أحد يرى عِلّتي، فتشت أمي في سائر جسدي، حاولت مراراً أن تعرف سبب صراخ الرضيع المستمر، دخل الشهر الكريم ولم أكف عن البكاء، احتلت خرائط الأرق وجهي الصغير، انتفخت جفوني من كثرة البكاء، بُح صوتي فصار أشبه بزبيط البط، باتت الأفكار والهواجس تلعب برأس أمي، فلربما لدغني عقرب، ولا عجب في ذلك عندما تقطن بـ''تل العقارب''! ولكن كيف تكتب لي حياة بعد لدغة عقرب؟ لا أحد ينجو منها..أما الثعابين فتكاد تصبح من أفراد عائلة التل الكبيرة، يستمتع الصبية هنا بصيدها وسلخ جلودها وأحياناً كثيرة بتقطيعها ثم أكلها مقليّة..لقد جرّب الفتيان طعم الكثير من الكائنات هنا، حتى الكلاب والقطط، قُدمت إليهم على أنها لحوم الضأن اللذيذة..خطر ببال إحدى الأمهات في التل ذات مرة أن تقطف أوراق شجر''اللوف'' المنتشر، وحشوه كبديل للفائف ورق العنب الشهيّ، نجح الأمر !ربما الحشرات فقط هي التي لا تجد من يأكلها في التل..

هبطت أمي بي سلالم التل التي تعزلنا عن المدينة، راجيةً أن تجد الدواء الشافي في رحاب السيدة زينب، بعدما زارتها في المنام البارحة بشعر أشعث ممسكةً بكفيها وتريد أن تدخل بيتنا ولا تقدر..التقت أمي ''بالست المبروكة'' دائمة الجلوس أمام عتبة السيدة، انهمرت دموعها وهي تلقي بي في حجرها، قالت المرأة بكلمات متكسّرة :''محسود ..بخّري وارقي'' ..لم تفلح نصيحة المبروكة ولم تتحسن حالتي ..ثم أخبرَت أبي بعد شعورها بالعجز التام حيال ما يحدث لي..

كانت ليلة العيد وكان أبي مولعاً بالعمل في الورشة في تلك الليلة تحديداً، فيقوم بصنع عدد كبير من الأحذية، لأبي أصابعٌ طويلة ممتلئة يلطخها الورنيش الداكن، وأظفارٌ عريضة متشققة، دهست صدره نعال الأحذية التي صنعها فقوّست عظمة ''القص'' بمنتصف صدره، لم يكن أبي قصاصاً، بل كان إسكافياً، نعم.. الإسكافي الوحيد بتل العقارب.. ظل يصنع أحذية قبيحة جداً بقوالب أمامية تشبه أنفه المفلطح، لكنها متينة مثل بنيته الضخمة، تتحمل قسوة أرض التل وأحجاره وقمامته، وبكعوب عريضة مثل فكه السفلي الكبير، تحدثُ صريراً مخيفاً كصوته الغليظ إذا تحدّث ..تمسك الأمهات بأقدام أطفالهن قسراً لتجربة أحذية أبي في الورشة، يبكون.. يصيحون رعباً عند رؤيته، ثم يهدأون عندما تأخذهن أمهاتهن بعيداً بالأحذية الجديدة اللامعة، يراقب خطواتهم مطمئناً إلى صنع يديه المحكَم وقد كسا الأقدام الصغيرة الحافية، يفتح فمه الكبير ليضحك، تلك الضحكة الوديعة البلهاء التي لا تناسب رجلاً في ضخامته، يعود إلى البيت متأخراً بخطى ثقيلة ورائحة عرق كريهة، تسأله أمي عن المال فيضع في حجرها كل ما لديه صامتاً، يغسل وجهه وكفيه ولا يجتهد في مسح بقع الورنيش منهما، يجلس على الطبلية مستسلماً، لم يتذمر قط مهما بدا الطعام رديئاً، مهما حاولت أمي استفزازه بكثرة الطلبات..

عندما أخبرَتْه حملني وظل يحدّق إلى وجهي، ودموعي تجري فوق وجنتيّ المتقرحتين ، ظن أنني أبكي لأنه يحملني، لأنني أخشاه كالجميع، فأعادني إلي ذراعيها! من الصعب أن يفهم رجل مثله ما يُقال له، نظر إليها بعينين حائرتين لا يدري ما يقول، كل ما فعله أنه أخرج كل المال من جيبه وأعطاه لها كالمعتاد، فسبّته باكيةً!

لا أستطيع أن أصف أمي، ولكن قبل ذلك بعدة أيام، تركتني لدى جارتنا واصطحبت إخوتي لشراء ملابس العيد، هبطت بهم عبر السلالم الكثيرة إلى أسفل ليصيروا في قلب السيدة زينب، ثم حشرتهم معها في الباص إلى (وكالة البلح)، سارت بهم وسط الزحام، ثم توقفت لدى فَرشة أحد الباعة بـ(سوق الكانتو) والذي كان ينادي بصوت مزعج:

–أي حاجة بإتنين ونص!

تتركهم أمي بعد عشرات التحذيرات بألا يبرح أحد منهم مكانه وتظل تقلّب في البضاعة داخل صناديق الكرتون الكبيرة محاولةً إيجاد ما يناسب أحجامهم، تنزلق طرحتها السوداء إلى الخلف عدة مرات من فوق رأسها تحت وهج الشمس، تشتبك الأيدي بعضها ببعض، وتدب عشرات المشاجرات حول صناديق الملابس المستعملة (أم إتنين ونص)، تخرج أمي من هذا الجحيم بعد وقتٍ يبدو طويلاً جداً بعدة حقائب سوداء حشتها بالملابس، ثم تكرر الأمر ذاته لدى بائع آخر حتى تكتمل أطقم العيد للجميع!

في آخر محطة من محطات ''الكانتو'' تتوقف لدى بائع للجوارب فتأمر إخوتي بأن يقبض كل منهم كفه لترى ما إذا كان الجورب يناسب قدم كل منهم أم لا، قبل أن تتفوه ''منى'' أختي الكبرى بكلمة لكي تختار جورباً مطرزاً بزهور وردية حول الحافة تذكَّرت تحذيرات أمي فصمتَتَ أما أخي ''حسين''فلقد قال تلك الكلمة دون وعي ودون حساب مسبق للعاقبة:

–أنا جعان!

فصفعته قائلة:

–إنت فاطِر يابن الكلب؟؟!

بكى..ربما لأنه كان جائعاً فعلاً ولأن طفلاً في الثامنة من عمره مازال من حقه أن يبكي لو صفعته أمه وسبّت أباه!

تعود بهم إلى النل مرة أخرى والهواء المعتلّ بأنفاسهم يهبُّ عليهم من حين لآخر حاملاً رائحة عباءتها المشبعة بعرقها الغزير الخانق، تخطو بهم مسرعةً غير عابئةٍ بأقدامهم المتعبة، تُخرِج الملابس من الأكياس فتقوم بتوزيعها بحسب اختيارها، تتذمر أختي الصغرى ''مديحة'' كعادتها وتبكي متهمةً أمي بأنها أحضرت لمنى ملابس أجمل من ملابسها، تظلّ أمي تسبها وتضربها فلا تهدأ إلا عندما تحصل على فستان ''منى'' والتي تتنازل عنه لها برضا، ''مديحة'' تشبه أمي بصورة كبيرة، لها فم واسع وأسنانها متباعدة، لا تكف عن حكّ فروة رأسها، عاني جميعنا من القمل فعالجت أمي رؤوسنا بالجاز وأحيانا بالسبرتو إلا ''مديحة'' لا تبرأ منه أبداً..

كانت تلك هي أمي قبل كشف سري!

كنتُ أنام بين والديّ وبقية إخوتي ينامون في الحجرة الضيقة حيث يفصل بيننا وبينهم ستارٌ قصير، لم تنم أمي في هذا اليوم رغم النعاس الذي غلبني وأسلمني لنومٍ عميق لم أجربه منذ أسابيع، ظلت تفكّر في أمري وهي عازمةٌ على أخذي إلى المستشفى العام في الصباح الباكر، كان ذلك بمثابة هزيمة لها، ولكن عندما تسلل أول شعاع شمس من شباك الحجرة الصغير بدأت علتي تتكشّف!

لمَحَت شيئاً أخضر اللون يخرج من أذني اليسرى!

شهقت وهي تهز جسد أبي الضخم ليشاهد ذلك..في عينيه النظرة الحائرة ذاتها، حاول إدخال أصابعه الغليظة الواحد تلو الآخر لينزع الشيء الأخضر، لم يستطع وعندما همّت أمي بالمحاولة ترددتْ بعض الشيء وخشيت أن يتسبب ذلك في أذى لي..

هرعت بي إلى المستشفى وسط جموع المصلين، والتكبيرات تهز أرجاء المكان، استُبدلت طاولات الكنفانية بالأراجيح الملونة المصفوفة على جانبي الشارع، ونصَب بائعو البمب ولعب الأطفال عرباتهم الخشبية المبهجة، بينما تنهمر دموعها وسط فرحة الجميع، تندب حظنا وشعورها الدائم بالضياع والوحدة..

أمسك الطبيب بجهازٍ صغير حاول إدخاله في أذني اليسرى، كلما قربه منها صرختُ بأعلى صوتي، وعندما انتهى من الفحص قال:

–دي ساق نبات..يظهر حد حط جوه ودنه بذرة ..دي حالة نادرة جداً عمري ما شفتها قبل كده!..

فردت منزعجةً:

–يا ساتر يارب، طب إيه العمل يا دكتور؟

–الحل إني أشيلها جراحياً، بس أبوه يمضيلي إقرار إنه مش هيسمع تاني بالودن دي..

–مش هيسمع تاني؟ يا وقعة سودا!

–الله ..ما فيه ودن تانية سليمة!

–طيب يا دكتور هشور وارجعلك..

صعدت بي والدتي سلالم التل في حالة يُرثى لها، شعرَت بانكسار لا يناسب جبروتها، ربما كانت أمي تمثّل هذا الدور الخشن طوال الوقت، لم تكن تحتاج سوى ورقة خضراء تطفر من أذن أصغر أبنائها كي تتفجر في وجوهنا ضعفاً، تكفّ عن حالة إنكار العجز التي تحياها وتعترف أنه ليس بوسعها شيء حيالي أو حيال أبي أو إخوتي أو عقارب التل اللادغة..عادت بي وجلّ همها أن تكتشف من الذي قام بتلك الفعلة التي هزمتها! وصلنا إلى بيتنا المتهالك فدفعت الباب بعنف، لتجد إخوتي في ملابس العيد فرحين! ارتدت ‘‘منى’’ فستان ‘‘مديحة’’ والذي دخل بصعوبة ولكنّه بدا جميلاً فوق جسدها الرقيق، لها ضفيرتان مثل السميط المضفّر وعينان عسليتان واسعتان وقلبٌ حنون.. أما ‘‘مديحة’’ فكانت مثيرة للضحك بفستان ‘‘منى’’ الفضفاض، بينما يطير أخي ‘‘حسين’’ بالبنطلون الجينز والقميص (الكارو) ويفكّر مِن أين له أن يأتي بنظارة شمس بلاستكية تبدو كالحقيقية تماماً كي يبدو جذاباً أمام بنات التل!

كان أبي لا يزال يغط في نومٍ عميق، فأمسكت أمي بكل واحدٍ منهم فضربته ضرباً مبرحاً، قامت بتسخين ملعقة على شعلة الموقد وأقسمت أنها ستحرق جلودهم بها جميعاً إن لم يعترف الجاني..هنا صاح ‘‘حسين’’ باكياً :

–‘‘أنا ..أنا اللي حطيت القمحة في ودنه’’..

كان غريباً أن تخلو غرفتنا الصغيرة فجأة منهم جميعاً، فنصير بمفردنا ربما للمرة الأولى على الإطلاق، أعرف أيضاً أنه لم يحدث مطلقاً بعد ذلك، كان يلهو بحبوب القمح المنقوعة في الماء، حيث كانت أمي تنوي إعداد ‘‘ البليلة’’، ولقد اعتادت أن تفعل ذلك في يوم الجمعة من كل أسبوع، وكنتُ أنا مجرد طفل رضيع يرقد بعد وجبة مشبعة ولا يفكّر في شيء، التقطَ تلك الحبة بالذات من بينهن، وأدخلها بعنف بداخل أذني اليسرى.. من المؤكد أني صرخت، طلبت المساعدة ، ولكن لم يغير صراخي القدر..

قدرٌ محتوم.. أخي الذي لم يغرس في حياته كلها فسيلة، زرع في أذني حبة قمح!

لا يهم كيف عاقبت أمي ‘‘حسين’’، ولا كيف أرغمته على قضاء العيد كله سجين البيت ولا أنها مزقت ملابسه الجديدة ‘‘المستعملة’’ أمام ناظريه، المهم فعلاً أن آلامي قد سكنت، فبخروج تلك الساق الخضراء، صار بوسعي النوم أخيراً بعمق..

المهم فعلاً كيف نبتت حبة قمح في أذني؟ تلك الحبة – ودون أن تدري–روتها أمي بلبنها الذي يعود من بلعومي إلى أذني! روتها من الماء الشحيح الذي تصبه فوق رأسي وقت إستحمامي ، الماء الذي تحمله فوق رأسها من طلمبة الماء الوحيدة في الجوار ، كيف نبتت حبة قمح في تل مقفر كهذا؟ في روحٍ كروحي؟ وسط العقارب والثعابين والقمامة والبشر المهزومين؟

لماذا أنا؟

–دوماً ما تسأل هذا السؤال! لماذا أنت؟ ولكنك لم تستطع الإجابة عليه قط، بعد كل تلك السنوات مازلت تحسب أن أخاك هو الذي اختارني؟! لا يا حبيبي، بل أنا التي اختارت، اخترتُ الأرض التي أحيا وأموت فيها، كنتُ بكراً ومازلتُ على بكارتي، أتدري لماذا؟ لأن في عالمي –كما تعلمُن– البكارة هي ألا تُنتهك، البكارة هي أن تُبذر في أرضٍ تحبك وتحتضنك، أنا بكّر لأنني لم يمسسني سوء في معيّتك.. في أعماقك.. تقول أنك لم تولد لحظة ولدتك أمك؟ فعلاً!

سأخبركن، لقد اختار الله له بذرة قمح بيضاوية لكي تصير مداره الخاص، فكونّا معاً فضاءنا الفريد والوحيد..كان ذكراً وكنت بذرة مشقوقة من المنتصف، تشبه شفرتي أنثى من بني البشر ..

حسناً، لقد سكنتُ أجمل ما فيه!